اسم الدرس :تفسير سورة الحديد | الجزء الرابع

تصنيف الدرس :مجلس تفسير

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبيّ بعده، محمد -صلى الله عليه وسلم-، نكمل بإذن الله -عز وجل- تفسير سورة الحديد.

توقفنا عند قول الله عز وجل ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْ لا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)﴾

ذكرنا أن هذه السورة العظيمة -سورة الحديد- نزلتْ في وقت شدة وضيق، وكثير من الناس يحزن في هذه الأوقات، ويصيبه هم وغم عندما يمرّ الدين بوقت ضيق وشدة، ولكن **هذه الأوقات لها حِكم عظيمة، منها:**

- النور الذي يظهر للناس فيميز بين المؤمن والمنافق
- ومنها الثواب العظيم
- ومنها اختلاف الدرجات بين المؤمنين أنفسِهم؛ كما أخبر الله -سبحانه وتعالى- في السورة (آية الدرجات) ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾.[آية: ١٠]

وذكرنا أيضًا أن الله -سبحانه وتعالى- قبل أن يقول ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[آية: ٢١]، قال ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[آية: ٢٠]؛ لأن الإنسان لا بد أن يعلم حقارة الدنيا، حتى يصبح عنده عزيمة ويسعى في الدين وينطلق، لذلك؛ (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) جاءت أولًا، ثم بعد ذلك (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ) يجب أن تكون (اعْلَمُوا) قبل (سَابِقُوا)، فلو سمع الإنسان كلمة (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) دون أن يعرف حقارة الدنيا، سيكون هناك قيود تشده ولن يستطيع الانطلاق.

لذلك؛ الله -عز وجل- يقول في سورة التوبة ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾[اية:٣٨]، هناك أثقال وأحمال تشد الإنسان، المطلوب أن نحقق نوعًا من التحرر، لذلك امرأة عمران قالت ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آلعمران:٣٥]،

" مُحَرَّرًا " أي: يكسر كل القيود والأغلال والأثقال وينطلق، فحتى ينطلق الإنسان في أعمال الخير -دون أن يحمل أثقالًا؛ سواء من الشهوات أو المال أو المناصب أو غير ذلك- يجب أن يعلم حقارة الدنيا.

وأكثر آية جاء فيها تفصيل في حقارة الدنيا موجودة في سورة الحديد؛ فقد وُصِفَت الدنيا فيها بخمس أوصاف متتالية " لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ "، في آيات أخرى جاء وصف (لَعِبٌ وَلَهْوٌ)،أو بصفتين أو ثلاث، إنما جاءت الخمس صفات مجتمعة في سورة الحديد، **لماذا؟**

=لأن المطلوب منهم أمر عظيم، المطلَب هو جهادٌ وبذل ونصرة وإنفاق لدين الله.

نبدأ حديثنا عن آية ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ(٢٢)﴾:

ذكرنا أن من المشاهد المهمة التي يجب على الإنسان أن يشهدها في وقت الأزمات:

ضرورة استحضار مشهد القدر

فلو غاب مشهد القدر عن ذهن الإنسان، سيصيبه -كما جاء في تعبير القرآن- ((حسرة في القلب))، فالله -عز وجل- قال عن المنافقين والكفار في غزوة أحد، في سورة آل عمران ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾[اية:١٥٦]، فأخبر الله أن الذين سيقولون (لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا) ما الذي سيحدث لهم؟

﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾، إذاً عدم استحضار مشهد القدر في حياة الإنسان، يجعل هناك حسرة في قلبه دائمًا، ويجعله دائم الحزن، ويجعله يسير في حياته قائلًا: ياليت ذلك الأمر لم يحدث!

لذلك؛ عبادة بن الصامت –رضي الله عنه- كان يُعلِّم ابنه فيقول (واعلم أنك لن تجد طعم الإيمان) -أي: لن تصل إلى حقيقة الإيمان في حياتك- (إلا إذا أيقنت أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك)[1]

(أن ما أصابك لم يكن ليخطئك)، أي أن الأمر أو المصيبة أو الضربة التي أصابتك، لو تكررت مئة مرة فستصيبك أيضًا! يعني لو أخبرناك أننا سنعيدها -أي تلك المصيبة- وعُدنا بالزمن إلى الوراء، وقمت أنتَ بأخذ احتياطاتك حتى لا تصيبك المصيبة، فإنها ستصيبك لا محالة!

﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾[آل عمران:١٥٤]، أي: حتى ولو لم يخرجوا ليقاتلوا في سبيل الله، فالذي سيحدث أنه وهو جالس في البيت، فجأة سيخطر له أن يخرج إلى الخارج، ويمشي حتى يصل إلى مكان موته، فيموت في نفس المكان!

لذلك؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[لقمان:٣٤] أنت لا تعرف أين ستموت... ولا يغني حذرٌ من قدر!

فاستحضار مشهد القدر مهم، حتى لا يصاب الإنسان -وهو يعمل للدين- بإحباط.

موانع نُصرة الدين

[1] - [عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت:] عن الوليدِ بن عُبادةَ بن الصامتِ قال: دخلتُ على عبادةَ وهو مريضٌ فقلت أوصِني؟ فقال: إنكَ لن تطعمَ طعمَ الإيمانِ ولن تبلغَ حقيقةَ العلم باللهِ حتى تؤمنَ بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِهِ وهو أن تعلمَ أن ما أخطأكَ لم يكن ليُصيبَكَ وما أصابكَ لم يكن ليُخْطئكَ.. وإن متّ ولستَ على ذلكَ دخلت النارَ /ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ)، فتح الباري لابن حجر ٤٩٩/١١ • [روي] من وجه آخر بإسناد حسن

قال سبحانه وتعالى في آية (١٩) ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾، فنجد أن من موانع نصرة دين الله تعالى:

١. **المانع الأول** هو ...((**الدنيا**))؛ فأخبرهم الله عن حقارة الدنيا وكلمهم عن الدار الآخرة.

٢. **المانع الثاني** هو...((**الخوف من الأذى**))؛ أي أخاف أن يحدث لي إيذاء أو أن أُصاب، فالله –عز وجل– قال أنه سبحانه قدّر عليك –في الحالتين– أنواعًا معينة من المصائب والابتلاءات، سواء نصرت دين الله أم لم تنصره، فذلك الإيذاء مكتوب عليك!

على سبيل المثال: أُصيبَ بعض الذين خرجوا نصرًا لدين الله في غزوة أحد، لنَقُل أن أحدهم أصيب بضربة سيف على ذراعه، نفسُ هذه الضربة كانت ستصيبه لو بقي في المدينة، وكانت ستصيبه كذلك لو ذهب إلى الطائف أو الشام أو اليمن! ولكن من رحمة الله به أنها أصابته في سبيل الله.

فمهما فر الإنسان من المصيبة، المصيبة ستُصيبه، لكن من كرم الله –سبحانه وتعالى– بالمؤمن أن تصيبه هذه المصيبة في سبيل الدين...إذًا هذه قاعدة مهمة جدًا، وتريح الإنسان.

لذلك؛ في سورة البقرة، قبل ذكْر آيات القتال في قصة طالوت وجالوت التي بدأت بـ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .....(٢٤٦)﴾ الواردة في آخر الجزء الثاني في سورة البقرة، الله –عز وجل– بدأ هذا الربع الذي في آخر الجزء الثاني بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ..... (٢٤٣)﴾، قيل أن هناك قرية سيهاجمها أناس ويقتلون من فيها، فخاف أهلها القتال، وتركوا بلدهم وفروا هاربين! (وفي قول آخر: نزل الطاعون على هذه القرية، فكلهم تركوا البلد وفروا خارجين!)

الشاهد، منظر الألوف وهم خارجون من بلدهم وهم خائفون، ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾

لماذا أماتهم الله تعالى؟

ليعلمهم الله أن الفرار من الموت لا ينجي منه! الموت سيدرككم ولو كنتم في بروج مشيدة، الموت آتٍ لا محالة.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد:٢٢]، أي إياك أن تظن أن القعود عن نصرة دين الله سيمنع عنك المصيبة، فالمصيبة آتية في كل الأحوال.

الله –عز وجل– قال في أول سورة البلد ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾

مَن المقصود بـ"الإنسان"؟

هو الملتزم وغير الملتزم والمؤمن والمنافق والكافر، كلهم سيمرون بالكبد، ولكن كبد المؤمن يكون لنصرة دين الله، لذلك؛ عندما يدخل أهل الإيمان الجنة يقولون ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾[فاطر:٣٤]، إذًا أهل الإيمان كان يصيبهم الحزن، ولكن كان لهم حزن خاص على أشياء خاصة؛ فكان يحزن لأنه أضاع طاعة، أو لأنه لم ينفق في سبيل الله، ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾[التوبة:٩٢]، كما نحزن نحن أن الحج فاتنا –نسأل الله عزوجل أن يبلغنا الحج ولا يحرمنا أبدًا من زيارة بيته الحرام، وزيارة النبي –صلى الله عليه وسلم–.

فالحزن الذي يصيب أهل الإيمان يختلف عن حزن أهل الدنيا، الحسن البصري لما قرأ هذه الآية قال: والله ما حزنوا على دنيا فاتتهم...أي أن حزنهم ليس كحزن أهل الدنيا، حزنهم مختلف.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ﴾[الحديد:٢٢]، عندما يعرف أحدنا هذه المعلومة، يصبح هادئًا مطمئنًا وهو يعمل لدين الله، ويَذهَبُ عنه الخوف، لأن الأقدار حاصلة في كل الأحوال، ولو كُتِب عليك أنك ستصاب بمصيبة معينة فأنت لا بد ستُصاب بها!

إذًا -كما ذكرنا- **من الأمور التي تؤدي إلى التردد الذي يحصل عند بعض أهل الإيمان لنصرة دين الله تعالى** هو:

١) **التعلق بالدنيا**، وحتى يُعالِج ذلك قال سبحانه ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[الحديد:٢٠]

٢) **الخوف من الأذى**، فالإنسان يخاف، فالله يخبره أنك لو كنت خائفًا من الأذى، فهذا الأذى سيأتي إليك حتى يصلك ولو كنت في بيتك! ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾[آل عمران:١٥٤]، فأنتَ مكتوب عليك هذا النوع من الأذى في كل الأحوال، سواء خرجتَ أم لم تخرج، نصرتَ الدين أم لم تنصر، قاتلتَ أم لم تقاتل، أنت مكتوب عليك هذا النوع من الأذى.

الله البارئ

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾[الحديد:٢٢]، الهاء في "نبرأها" تعود على ماذا؟ البعض قال: تعود على (المصيبة)، والبعض الآخر قال: تعود على (الأرض)، وغيرهم قال: تعود على (النفس)، لكن كثيراً من المفسرين رجح هذا القول –أنها تعود على (النفس)–، لماذا؟

لأن فعل "البَرْء"، دائمًا ما يأتي مع النفس، سيدنا علي عندما كان يُقسِم كان يقول :(والذى برأ النسمة وفلق الحبة إني أحبكم في الله) بهذا كان يبدأ سيدنا علي –رضي الله عنه– خطبته.

ففي الغالب، فعل (البَرْء) يأتي مع النفس، ولكن يمكن أن يأتي (البَرْء) بمعنى الخلق، فالبارئ من أسماء الله سبحانه وتعالى (الخالق، البارئ، المصور)

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾، انتبه... هذه الآيات تتحدث عن مصيبة، في حين قالوا أن اسم الله "البارئ" من معانيه: أن الإنسان كان طينة منتنة تعفنت، فلما نفخ الله –عز وجل– في هذا الطين من روحه، برأ هذا الإنسان من الطينية التي كانت فيه، وتحول إلى إنسان مُشرف مُكرم، **فكلمة يبرأ فيها معنى الشفاء**. إذًا الإنسان تخلص من قذارة الطين إلى شرف الروح بنفخة من روح الله –عز وجل–، ولهذا من أسماء الله –سبحانه وتعالى–: (البارئ)

إذًا (الخالق، ثم البارئ "تخلص الإنسان من الطين"، ثم المصور "حصل التصوير للإنسان")، سبحانه له الأسماء الحسنى.

فالعجيب أن تأتي لفظة البارئ هنا مع المصيبة –مع أن البارئ فيها شفاء وفيها رحمة–، وفي ذلك معنى: أن المصيبة التي تصيب الإنسان هي أصلًا خير له ورحمة به، لكنه لا يدرك ذلك.

جاء في الحديث الجميل الرائع في البخاري: {ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولإن سألني لأعطينه، ولأن استعاذني لأُعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدى المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته ولكن لابد له منه}[٢]

فهذا الختام جميل جدًّا، "ولكن لابد له منه"! فليس هناك سبيل لدخول الجنة إلا أن تموت، فاعلم أن المصيبة التي تصيبك، لابد لك منها! أي أن ربنا –سبحانه وتعالى– لا يريد لك ذلك، لكن لابد لك منها.

كالطبيب أو الأب مثلًا –ولله المثل الأعلى– مثل الأب الذي يعطي ابنَه حقنةَ العلاج المؤلمة بيديه، وابنه يصرخ، قد يأتي شخص جاهل ويقول لوالد الطفل: (حرام عليك، لا تعطه الحقنة وتؤلمه، الطفل لا يتحمل وخز الإبرة)... هذا شخص جاهل لا يفهم.

فالذي يَحزن على ما يصيبه من الأقدار، هذا لا يفهم حكمة الله –سبحانه وتعالى–، لا يدرك ما سيصيبه من الخير على إثر هذه المصيبة، فكلمة "نبرأ" هنا كلمة جميلة للغاية ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحديد:٢٢].

لو أيقن الإنسان أن هذا الكون لا يحدث فيه شيء إلا بتدبير الله، لو أيقن!!! لا يكفي أن يعلم، يجب أن يوقن! ﴿لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[الحديد:٢٣]، في تلك الحال لن يحزن كثيرًا إن فاته أمر ما، ولن يفرح كثيرًا لدرجة

[٢] - [عن أبي هريرة:] يقولُ اللهُ تعالى: من عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربةِ، وما تقرب إليّ عبدي بمثلِ أداءِ ما افترضته عليه، ولا يزالُ عبدي يتقربُ إليّ بالنوافلِ حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به وبصرَه الذي يُبصِرُ به ويدَه التي يَبطشُ بها ورجلَه التي يمشي بها، فبي يسمعُ وبي يُبصرُ وبي يَبطشُ وبي يمشي، ولئن سألني لأُعطينه ولئن استعاذني لأُعيذنه، وما ترددت في شيءٍ أنا فاعلُه ترددي في قبضِ نفسِ عبدي المؤمنِ يكرهُ الموتَ وأكرهُ مساءتَه ولابدَّ له منه /ابن تيمية (٧٢٨ هـ)، مجموع الفتاوى ٣١٦/٢٥ • صحيح

البطر والفخر على الناس، (بالنسبة للفرح الجِبِلّي لا يوجد من يستطيع منعَه، بل بالعكس، أنت مطالب بأن تفرح بنعم الله عليك)

لكن المقصود هنا في ﴿لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾، "الأسى" هو الحزن المفرط، الذي يجعل الشخص يلطم ويصرخ ويصيبه يأس، فهذا منهي عنه ﴿لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾.

﴿وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾، ولكن أنا قد أفرح إن حصلت على سيارة أو نجحت أو تزوجت، وهذا طبيعي، هذا الفرح الجِبِلّي غير منهي عنه، ولكن المنهي عنه هو الفرح الذي يؤدي إلى البطر و الفخر والتكبر على الناس.

عندما تقابل شخصًا يائسًا أو عنده فرح فيه بطر، اعلم أن عنده مشكلة في الإيمان بالقدر، فكلمه عن القدر، لأنه لا يفهم ترتيب الله تعالى للأقدار.

وإذا أحببتَ أن تعالج نفسك، إذا رأيت أنك إذا وقعت في مشكلة كبيرة، فجلست وأنت تشعر بحسرة داخلك، وظللت تتمنى أن ما حصل لم يحصل! وتقول يا ليت الزمان يعود بي كي لا يحصل ما حصل! اعلم في هذه الحالة أن لديك مشكلة، وأن القدر عندك لم يتحول بعد إلى إيمان ويقين تام في حياتك!

﴿لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ واللّهُ لَا يُحِبُ كُلّ مُخْتَالٍ فَخُور﴾

إذًا، موانع انطلاق الإنسان لنصرة دين الله أمران:

١. خوفه على الدنيا، كيف يُعالَج؟ ﴿اعْلَمُوا أَنّمَا الحَيٰوة الدُّنْيَا﴾[الحديد: ٢٠]

٢. خوفه من أن يُؤذى، كيف يُعالَج؟ ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾[الحديد:٢٢]

تجد من عنده الدنيا حقيرة ومؤمن بالقدر منطلقًا لنصرة دين الله، أغلب من يتخلف أو تخلف عن غزوات النبي -صلى الله عليه وسلم- عنده مشكلة في هذين الأمرين، إما خائف يقول لئلا أؤذى أو أُجرَح أو أصاب.

العجيب أن خالد بن الوليد مات على فراشه، تأمل لقد قاتل حتى صار ما من موضع في جسمه إلا فيه ضربة رمح أو ضربة سيف أو طعنة رمح، وفي النهاية يقول: "أموت على فراشي كما يموت البعير"، فلا نامت أعين الجبناء.

هو رجل كان يبحث عن أماكن الموت في القتال -خالد بن الوليد- ولم يُقتل.

وكان شيخ الإسلام -ابن تيمية- يقول للقائد في كل قتال: "ضعني في مكان الموت"؛ أي المكان الذي يموت كل من يوضع فيه، لكنه لم يُقتل في المعارك.

الإنسان الذي يظن أن تقاعسه عن نصرة دين الله سيحميه هو إنسان لا يفهم معنى القدر...من يقول: إن فلانًا لو لم يذهب هناك لما حدث له كذا، هو لا يفهم، فما كان مُصيبُه لابد سيُصيبه!

إنها أقدار... طالما ما فعلته كان شرعيًا، وأكرر لأن هذا القيد مهم.

فقد يقول لي أحدهم :ربما يُلقي الرجل بنفسه في التهلكة ويقول إنها الأقدار!!!

لا، طالما تفعل أمرًا أنت مُطالب به شرعًا فأَقدِم... قم به ولا تهتم وما يحدث لك هو مقدر.

فطالما قمت بعمل طلَب منك الشرع أن تقوم به، إذًا عليك أن تعمله، واعلم أنك حينها تأخذ بالأسباب الشرعية والقدرية.

إذًا قلنا السورة نزلت في وقت ضِيق وشدة، في احتياج للبذل، هناك ناس تقاعسوا عن نصرة دين الله، فربنا –سبحانه وتعالى– يعالج النفوس، نحن بشر ضعاف بداخلنا حب للدنيا وأطماع وحسد وحقد، القرآن يعالج هذه الأمراض. فالقرآن لا يعتبرك ملاكًا يقول لك: هيّا! جاهد في سبيل الله! لا، هو يعالج المشاكل التي بداخلك، **فحدّثك عن معرفة الله**: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الحديد:١] ، **وطوّف بك في الدار الآخرة، وحدّثك عن حقارة الدنيا، وحدّثك عن القدر**، ويخبرك: انتبه **هناك صنف من الناس سيقابلك لا يريد أن يبذل هو، ولا يريد للناس أن يبذلوا**: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ [الحديد:٢٤]

يبخلون ويأمرون الناس بالبخل.. من هم؟

هو يريد أن يبخل... حسنًا إنه رجل بخيل، يمكن أن نتصور هذا، لا يريد نصر دين الله، لديه مشاكل نفسية...ممكن .

أما أن يحث على الناس فيقول لأحدهم: يا أخي حرام عليك! لا تخرج الزكاة، الزكاة كثيرة يا أخي، و يذهب لآخر يقول له: يا أخي لا تنصر دين الله، وينصح ثالث فيقول: أريد أن أنصحك نصيحة لوجه الله، صَلِّ الفجر في البيت لا تصلّه في المسجد... لوجه الله!!!

لذلك، **فالبخل هنا يمكن أن يُحمل على العموم**، وليس فقط البخل المادي، وأغلب البخل في القرآن يحمله كثير من العلماء على بخل اليهود في كتم صفة النبي –صلى الله عليه وسلم–. لكن البخل هنا يُحمل على العموم حتى لو المقصود الإنفاق المادي، كقول الله –عز وجل–: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ [الليل:٥-٨]

"بخل" هنا لا تعني فقط البخل بالمال، لا، بل هناك بخل من لا يعطي وقتًا لله، تقول له: إننا بحاجة لمتطوع مثلًا لتحفيظ القرآن للأطفال بالمسجد بدون راتب فليس لدينا مال للراتب، تجده بخيلًا لا يريد إنفاق الوقت، تقول: إنه صدقة من وقتك، فالله أعطاك صحة،

ومالًا وشبابًا فأنفق من وقتك لنصرة دين الله، تعلّم وعلّم الناس، يبحث عن مقابل لكل ما يقوم به! أنا سأحفّظ، كم المقابل؟ سأعطي درسًا، فكم المقابل؟ ليس كل شيء يجب أن يكون له مقابل مادي، لا بد أن تبذل لنصرة دين الله –سبحانه وتعالى.

سيقابلك في حياتك أناسٌ يبخلون، وآخرون ليس فقط يبخلون، ولا حتى ينصحون الناس بالبخل، بل يأمرون: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾[الحديد:٢٤] ويأمرون! فبدلًا من أن يأمر بالمعروف وينهَ عن المنكر تجده يأمر بالبخل (وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ).

فربنا يقول لهؤلاء ولمن يطيعهم من المخدوعين الذين لن يبذلوا لدين الله: (وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ). [الحديد:٢٤] الله لا يحتاجك... لا تظن أنك حينما تُعطي درسًا في المسجد أن الدين سيقع إن لم تفعل!

الشيخ يعقوب يقول لك: يا مسكين! لا تظن أنك حينما تخطب خطبة جمعة، أنه إن لم تخطب فسيموت المصلون جميعًا على الكفر! أنت واهم!

أنت إنما تذهب لأجل نفسك أولًا، أنت تبذل لدين الله كي تنجو أنت يوم القيامة؛ لأن الله –عزوجل– غني.

﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾[محمد:٤]

هذا ابتلاء...اختبار... فمن ينصر دين الله ممتنًا، كأن يقول: ((حسنٌ، سأرى ما تحتاجون إليه وأحاول أن أفرغ بعض وقتي)) من يتعامل هكذا مع الدين ولا يرى نفسه عبدًا، فهو على خطر... أنت لست مخيرًا!

هناك نِعم يمنحك الله إياها، مثل أن تُعطي درسًا أو أن تصلي إمامًا بالناس، أو أن تُعلم أو تُحفظ قرآن، أو... إلخ

هذه النعم إن بدأت بالفعل ومنَّ الله عليك وسرت في الطريق فأنت لم تعد مخيرًا أن تتركها حتى لو كانت نافلةً في البدء.

وسنتحدث في هذا المعنى عند قول الله —عزوجل-: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾[الحديد:٢٧]

فأحيانًا الأشياء التي تبدأها نفلًا إن بدأت في طريق خدمة الدين بها، وربنا مَنّ بها عليك، أصبحت مُلزمًا بها، إنها نعمة لا بد من شكرها والاستمرار فيها.

الشاهد، يقول ربنا: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾[الحديد:٢٤] عمن تولى، "الحميد" لمن أقبل وأعطى.

الله الحميد

ما معنى الحميد هنا؟

قيل "الحميد" هنا اسم فاعل بمعنى يَحمد، أي يَشكر ويُثني على أوليائه الذين بذلوا.

فهو الغني عمن أعرض، الذي يحمد للناس بذلهم لنصرة دينه، وكأن الله يقول: أن مَن سيبذل، فحتى نقطة العرق التي بذلها لن تضيع، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[النساء:٧٧] ، ولا نقيراً ولا قطميراً... لن تُظلَم، فكل كلمة قلتها لنصرة دين الله لن تضيع: ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٤٠] ، فمهما كان ما بذلت بسيطًا فإنه لن يضيع عند الله —سبحانه وتعالى-.

فالله —عز وجل- يحمد لك، كما قال تعالى ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود:٧٣]

ومن معاني الحميد هنا: أنه حينما نزلت الملائكة لتبشر زوجة سيدنا إبراهيم، في سورة هود —السيدة سارة- حينما نزلت تبشرها فتعجبت! (قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) [هود:٧٣] لم أنتِ متعجبة من أمر الله؟ ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ) العاملين لنصرة دين الله، فلو لم تنزل عليكم رحمة ربنا فعلى من ستنزل؟! (إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ)، أي يحمد لكم أفعالكم

لنصرة الدين، أفعالكم تكون محمودة عند الله -عز وجل-، الله -عز وجل- يحمدها وينميها لكم.

(وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [الحديد:٢٤] وقيل: هو الغني عن بذلكم، الحميد: أي أن الله -عز وجل- يُحمد حتى لو أن كل البشر لم يحمدوه فباقي المخلوقات كلها تحمده، فلو كل البشر كفروا فإن الله غني عنكم، لو كل البشر أعرضوا ولم يشكروا فالله غني عنهم.

لذا تجد أن السورة بدأت بـ (سبّح لله)، و قلنا أنّ من مزايا سور المسبحات أنها تبدأ بـ (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي أن الله غني عنكم، فالكون كله يسبح له، فتسبيحتك لن توقف الكون عن التسبيح، الكون لا يتوقف عليك، أنت تسبح لأجل نفسك أنت: (وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [الحديد:٢٤]

والآن **سننتقل للنقلة الأخيرة في سورة الحديد**، القسم الأخير وهو مهم جدًا جدًا... ختام السورة.

نكرر أنّ سورة الحديد نزلت في وقت ضيق وشدة تمر على الدين، كنا نحتاج إلى بذل في ذاك الوقت لنصرة دين الله، السورة تعالج البشر كبشر، لم تقل لهم أنفقوا في سبيل الله لأنه من لن ينفق سيصير سيئًا، لا بل حدثتهم عن معرفة الله، عن الدار الآخرة، عن حقارة الدنيا، عن عِظَم الآخرة، عن الدرجات المتفاوتة في البذل لنصرة دين الله، عن القدر، وفي النهاية أتت قصة الجهاد في سبيل الله، قصة وتاريخ الرسالات والجهاد في سبيل الله، فما هو الجهاد؟ وما خطورة غيابه؟ انتبه لهذه النقطة!

((خطورة غياب فريضة الجهاد من الأمة))،

ما الذي يمكن أن يحصل لأمة غاب منها الجهاد؟

السورة تتحدث عن الجهاد والإنفاق والبذل، فلو غاب الجهاد والإنفاق والبذل من مجتمع ما، لو تقاعس العاملون لنصرة دين الله في بلد ما، ماذا سيصيب هذا المجتمع وهذا البلد؟ هذا ما يوجد معنا بالصفحة الأخيرة من السورة.

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد:٢٥] هذه الآيات تحتاج تركيزًا شديدًا، فركزوا معي.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾،

- **ما معنى البينات هنا؟**

لأن الآية التي تليها ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي أن البينات تختلف عن الكتاب! لذلك

- **قالوا: البينات هي آيات تدل على صدق أنهم رسل،** ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾

فالبينات ليست هي التشريع.

﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ الكتاب هو التشريع بين الناس، إذًا كان النبي يأتي بآية تدل على أنه رسول، وهذه الآية قد تكون معنوية، كأنْ يكون الصادق الأمين، أو كسيدنا هود لا يستطيعون قتله ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود:٥٦] ويقف أمامهم ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴾ [هود:٥٥] ولا يستطيع أحد قتله، هذه آية، هذه بينة أنه رسول.

القرآن هو البينات وهو التشريع، لقد اجتمع كلاهما في القرآن، في معجزة النبي صلى الله عليه وسلم، هو البينات وهو الكتاب، إذًا الرسول كان يأتي معه آية تدل على أنه رسول أولًا، و بعد أن يتأكدوا من كونه رسولًا، يأتي التشريع ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾. [الحديد:٢٥]

ما موضوع الكتاب والميزان، هل الميزان غير الكتاب؟

أم الميزان جزء من الكتاب؟

كثير من المفسرين قال: **الميزان هنا المقصود به العدل** أو المقاييس التي نفهمها من الكتاب -لو أننا سنُسقط على ديننا - من القرآن عندنا موازين معينة، نطبقها في حياتنا الدنيا، فمثلًا؛ عندنا قواعد في الشريعة للتعامل مع أموال الناس،

مثلًا أنّ مال المسلم حرام، "كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه"[٣]،

هذه قاعدة من قواعد التعامل في الأموال، أن الأصل أن مالك حرام علي، لا يصح أن آخذه منك إلا بوجهة شرعية، في بيع و شراء بوجهة شرعية، بطيبِ نفسٍ منك؛ هذه قاعدة،

وهناك قاعدة منع الغش،

قاعدة منع الغرر،

قاعدة منع الربا،

هذه قواعد شرعية، هذه أصبحت موازين في شرعنا،

فتأتي لنا فكرة اقتصادية جديدة، فكرة مثلًا اسمها (فكرة فوائد البنوك)، فنجد عندنا الميزان المستقى من الشرع، نأتي بهذه القواعد ونقيس عليها هذه الفكرة، نضعها في الميزان، فإذا وجدنا كفة الباطل رجحت، فبالميزان الذي فهمناه من الشرع تكون هذه الفكرة باطلة،

وهكذا أي فكرة تأتينا فعندنا قواعد تُستقى وتُستنبط من النصوص، هذه القواعد أشبه بالميزان، كلما طرح شخص فكرة اقتصادية، سياسية، اجتماعية.

انتبه: الشرع لم يضع حدودًا لتفاصيل تفاصيل الحياة، هذا لم يحدث، و الذي يقول بهذا القول حَمِيةً للشريعة هو لا يفهم الشريعة، فمثلًا الذي يقول إن الشريعة لم تترك معاملة مادية ستحدث إلى يوم القيامة إلا وفصلتها وذكرتها في القرآن وفي السنة، لا؛ الصحيح أنها بينت أصلها.

[٣]- [عن أبي هريرة:] لا تَحاسَدُوا، ولا تَناجَشُوا، ولا تَباغَضُوا، ولا تَدابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ على بَيْعِ بَعْضٍ، وكُونُوا عِبادَ اللهِ إخْوانًا المُسْلِمُ أخُو المُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ التَّقْوى هاهُنا ويُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرّاتٍ بحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أخاهُ المُسْلِمَ، كُلُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ حَرامٌ، دَمُهُ، ومالُهُ، وعِرْضُهُ. /مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٥٦٤ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٦٠٦٤) مختصراً، ومسلم (٢٥٦٤) واللفظ له

فلا توجد معاملة مالية ستُستحدث إلى يوم القيامة إلا و ((في القرآن والسنة أصول لكيفية التعامل معها))

- ماذا يعني هذا الكلام؟
- عندنا أصول وقواعد شرعية في القرآن وفي السنة، فأي شيء يُستحدث نرجع للأصول، نرى إن كانت موافقة للأصول، فإن وجدناها موافقة، فهذه الفكرة تُستعمل.

فكرة إقامة الشركات، أو أن يتشارك اثنان مع بعض أو يُكوّنا شركة استثمارية أو سندات، كل هذه أفكار اقتصادية، هذه الأفكار نعرضها على ميزان الشرع، الميزان الذي فهمناه من القرآن والسنة، فإذا وجدنا من هذا الميزان أن تلك الفكرة لا يوجد فيها ظلم، إذًا الأمر انتهى، هذه الفكرة صحيحة.

إذاً أي فكرة تأتينا، مثل فكرة مجلس شعب، نقول ماذا سيفعل مجلس الشعب هذا؟ كذا وكذا وكذا، فنعرضه على موازين الشريعة، سنؤسس مجلسًا وظيفته كذا وكذا، طالما لن يفعل هذا الحرام و هذا الحرام، إذًا هو حلال، و إن كان سيفعل هذا الحرام أو ذاك فهو حرام.

- إذاً ماذا تضع لنا الشريعة؟
- قواعد

قالت لنا هناك شيء اسمه الشورى، الشريعة منعت الاستبداد والظلم، هذه أشياء حلال وحرام، تُستحدث فكرة جديدة فنقيسها على ميزان الشريعة، هذا الميزان من أين يأتي من عقولنا أم من أين؟ من الشريعة؛ لأن الميزان بالعقول من غير شريعة قد يكون مغلوط، مثلًا أنا أرى أن الأغنياء في المجتمع يجب أن يكونوا أفضل من الفقراء، أنا أرى هذا، عقلي يقول لي هذا! شخص آخر يقول: أنا أرى أن الأطباء يأخذون أعلى المرتبات في الدولة ...أنا أرى هذا، عقلي يقول لي هذا! فيجب أن تكون هناك موازين و قواعد نتحاكم إليها، كلنا نتحاكم إليها، الغني والفقير، الكبير والصغير، الرجل والمرأة.

- إلامَ يتحاكم كل الناس؟

- إلى هذه الموازين.

(الحكمة ضالة المؤمن)

-وننوه أنها ليست بحديث-، فإذا وُجدت فكرة جيدة حتى لو صدرت من كافر بل وإن صدرت من عند الشيطان ولا تصادم أصول الشريعة فنقبلها، نقبلها طالما نقيسها على ميزان الشرع ونجدها لا تُصادم الأصول، فلا نرد الفكرة لأجل مصدرها... لا، حتى وإن كان مصدرها شيطان أو كافر، نأخذ الفكرة فنعرضها على موازين الشرع، وجدنا ميزان الشرع يقول إن هذه الفكرة شرعية، إذًا نتعامل بها، الفكرة غير شرعية ولو كان قائلها أعلم علماء الإسلام وقال فكرة، فلما وضعنا هذه الفكرة على موازين الشريعة وجدناها حرام وباطلة فنردها.

- لماذا أنزل الله الكتاب والميزان؟ لماذا وضع ربنا الموازين؟
- (لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)

هذه قاعدة مهمة جدًا...

بداية لن يحدث قيام في المجتمع إلا إذا كان هناك عدل وقسط

وإذا غاب العدل والقسط عن المجتمع لن تقوم له قومة، أي لن يكون متقدمًا، ولو دولة كافرة طبقت العدل فستنمو هذه الدولة ، لو الدولة مسلمة و لا تتعامل بالعدل فستسقط الدولة.

إذًا (لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)، لن تكون هناك قومة للناس إلا بالقسط (لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)، إذًا ربنا يقول إن وظيفة الرسل وأتباع الرسل من الدعاة والعلماء أن يأخذوا الكتاب والميزان، ويعيشوا وسط الناس يصلح لهم الدين ويصلح لهم الدنيا، ليست وظيفة الرسول والداعية فقط إصلاح الدين ولا وظيفته إصلاح الدنيا فقط،

- **ولكن ما هي وظيفته؟**
- **إصلاح الدين والدنيا معًا.**

الخطورة التي تحدث عندما يُصَدَّر للناس أنني كرجل داعية في منطقتي وحدث مشكلة اجتماعية ما، فيقال لك كداعية وما شأنك أنت؟ يجب أن يُعلم أن الشرع هو الذي يحل المشاكل الاجتماعية، مشاكل الطلاق الشرع يحلها، مشاكل الخلافات ما بين الشركاء الشرع يحلها، إذًا هم يحتاجون الشرع في أخص المسائل الاجتماعية التي بينهم، الشرع هو الذي يحل الخلافات التي تحدث.

إذًا لو أن الداعية وظيفته في أمور الدين فقط، يعني جالس في المسجد، شخص يقول: عندي سؤال فأسأله عن ماذا؟ فيقول لي: معي مال و أريد استثماره، أقول له هذا لا يخصني، يسألني آخر فيقول لي: وأنا أصلي الظهر صليت ثلاث ركعات، أقول له: نعم إذًا اسأل، طالما أنك تسأل في العبادات فيحق لك أن تسأل، هذه الأفعال من الممكن ألا نفعلها، لكن أحيانًا بأفعالنا وليس بكلامنا نفعلها، يُصَدَّر للناس أن الدين هو العبادات فقط وليس المعاملات **وهذا تأصيل فكرة العلمانية**... إذًا نشر فكرة العلمانية وتأصيلها – هناك أهل باطل مجرمين يفعلون هذا– إنما أحيانًا أخطاء الدعاة تُصَدِّر هذا الفكر للناس، أننا نختص بالدين فقط ولا نختص بالدنيا، فعندما يسألني شخص عن الدنيا أقول له لا أعرف، المسائل الدنيوية ليست من اختصاصنا، نحن منعزلون عن الدنيا، *هذا الانعزال عن المجتمع والانشغال بالقضايا الدينية فقط وليس بمعاملات الناس سيولد المشكلة التي ستأتي و هي* ***مشكلة الرهبانية***.

إذًا القصور في التطبيق يؤدي إلى قصور في النتائج والتصورات، القصور في تطبيق الدين يؤدي إلى قصور في النتائج والتصورات في النهاية التي تصل للناس، إذًا عندما تطرح دينًا ناقصًا و تطبق دينًا ناقصًا فسيصل إلى الناس ناقصًا، لذلك نحن مقصرون، وهناك مقالة جميلة جداً أنصحكم بقراءتها للشيخ عبد العزيز الطريفي اسمها "العلماء وقصور الرسالة"، تقصير العلماء في تأدية الرسالة، "العلماء وقصور الرسالة"، إذًا ربنا أنزل الكتاب والميزان

(ليقوم الناس) في كل حياتهم، المعاملات الاجتماعية والقضايا الشرعية، في الصلاة والصوم والحج والعمرة، في الطلاق، في من يريد أن يفتح محلًا، أنا أريد أن أفتح محل ألعاب إلكترونية (بلاي ستيشن)، حلال أم حرام؟

إذًا يجب على الناس أن يعتادوا السؤال عن الحلال والحرام في تفاصيل حياتهم، لابد، لو كان الأمر فيه شبهة يسأل حلال أم حرام، لو كان الأمر مباحًا يستخير في كل شيء حتى في أموره الدنيوية، يجب على المجتمع أن يتعلم هذا، أن يرجع إلى الله، يعني لو أنه سيفتح محل بقالة مثلًا أو مكتبة أدوات مدرسية، الاثنان مباحان، يستخير ما بين هذا وذاك، إذًا يعتاد أن يرجع للشرع، يعتاد أن (لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) [الحجرات:١]، (لِيَقُومَ النَّاسُ بالقسط) [الحديد:٢٥] لكن مثلما قال ربنا لنا أن هناك أناس (يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ) [الحديد:٢٤] عندما تأتي للتطبيق...تطبيق (لِيَقُومَ النَّاسُ بالقسط) ستفاجأ بأناس تقول: لا نريد شريعة، يا جماعة ربنا يقول... لا نريد كلام ربنا! هذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم... لا نريد أن نسمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم! ماذا نفعل مع هؤلاء؟ أنت مُمَكَّن وأصبح عندك قوة، ماذا قال لك الله: (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ) هؤلاء من يصلح معهم الحديد أي: القتال (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) [الحديد:٢٥].

كأن ربنا يقول: **الناس صنفان**

- صنف ستَعرض عليه الحق فيقبله فتُصلح له دينه ودنياه وأنت مطالب –طالما قَبِل الحق– أن تُصلح له دينه ودنياه،
- وصنف سيُعارض وسيُعرِض، فيجب عليك أن تقاتله،

لذلك عندما قال ربنا في سورة الفرقان، (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ(٣١)) ربنا يقول أن كل نبي له أعداء من المجرمين، و ماذا ستفعل يارب مع المجرمين؟ **شيء من اثنين**: (وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا)[الفرقان:٣١] سنَعرض عليهم الحق، هناك فريق سيهديه الله وفريق سينصرنا الله عليهم (وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا)،

✓ "هاديًا" هذا الفريق الذي سيصلح معه ﴿الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾،

✓ "نصيرًا" الذين سنستعمل معهم السيف ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[الحديد:٢٥]

فهذه الآية وغيرها من الأدلة الواضحة التي يريد كثير من المعاصرين إلغاءها وهو القتال، يقول لك إن الجهاد هو جهاد دفع فقط وليس جهاد طلب، جهاد دفع أي أننا لا نقاتل إلا عندما يقاتلنا الكفار، لا؛ *نحن أولًا نذهب لنشر الدين مثلما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، فكان يرسل الرسل ليعرض عليهم الدين يذهب لأوروبا و يذهب للهند، يَعرِض عليه الدين يقول له: نحن نريد نشر دين ربنا، فإذا وافق ينتشر دين الله، وإذا منع وأصر وقطع الرسالة، وقال: لا يوجد دين هنا... اذهب لا يوجد هنا توحيد، إذًا هو من أراد القتال.*

فأنت تبدأ أولًا بالمسالمة، تقول له أنا سأكلم الناس عن دين الله، منع نشر التوحيد... يُقاتَل.

<u>قد يسأل سائل كيف تقاتلون الناس؟؟</u> يا جماعة أحيانًا تضطر أن تُطعِّم -تعطي تطعيمات- للناس حتى للرافض والذي يخاف من الوخز تعطي له التطعيم، لأنه خطر أن يُترك بدون تطعيم، وأحيانًا يفعلون ما يُسمَّى بالحَجْر الصحي على بعض الناس، أي يأخذون أناسًا ويحبسونهم في مكان لكيلا تَحدث عدوى بين الناس، **فالخوف على عقائد الناس أولى من الخوف على صحتهم**، أن يموت أناس على الكفر ويخلدون في جهنم هذا شيء خطير؛ طالما تعتقد أن الذي يموت على الكفر سيُخلد في جهنم فلا يصح أن تتحمل عدم نشر دين الله حتى إذا كنت ستقاتله.

من يرفض القتال لنصرة دين ربنا هذا إما عنده شبهة أو خائف أن تتردد أفكار سيئة عن الإسلام أو لا يدرك خطورة أن تترك إنسان يموت على الكفر!

وماذا لو وُجد رؤساء وقادة ظلمة، مثل قادة قريش الذين كانوا مانعين نصرة الدين، هؤلاء يجب أن يُقاتلوا مثل ما قُتِلوا في بدر، هؤلاء الصناديد يجب أن يُقَتَلوا؛ لكي يدخل بعد ذلك عوام أهل مكة في الإسلام، عوام أهل مكة كلهم دخلوا في الإسلام في فتح مكة، فمن

صدَّهم عن الإسلام يجب أن يقتل، لو رفضوا يجب أن تقاتلهم، مثلما قلنا هذا منوط بالقدرة و قيام الدولة، تنشر الدين ثم عندما يمتنع الناس يكون القتال.

إذًا قال تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا) قصة تاريخ البشرية، أرسلنا رسلنا بالبينات معهم كتاب وميزان يُصلحون وكأن الكتاب للإصلاح؛

لذلك قال بعض الناس: **الناس كأنهم ثلاثة أصناف** أو لهم ثلاث علاقات،

١. إصلاح ما بين الناس وبين ربهم في العبادة وهذا بالكتاب،

٢. إصلاح معاملات الناس مع بعضهم البعض وهذا بالميزان،

٣. إصلاح الظلم الذي يحدث بين الناس سيكون بالقتال،

والحديد ليس المقصود به فقط مجرد القتال، تطبيق الحدود هذا في معنى الحديد، السجن، الزجر، الردع للظالم، حد الحرابة للذين يروعون ويقتلون الناس.

الحديد .. فيم يُستخدم؟

إذًا (وأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) [الحديد:٢٥] الحديد أهم عنصر مفيد للدنيا، حضارة الدنيا قائمة على الحديد، لو نَزعْت الحديد من حضارة الدنيا كل هذه المباني تنهار، العجيب أن ربنا قدَّم فائدة الحديد في القتال على فائدة الحديد في الدنيا، إصلاح دين الناس بالقتال أولى من إصلاح دنياهم بالبناء، ولا يصح أن يمنعنا حرصنا على الدنيا من القتال، مثلما نقول دائمًا أن الصحابة عندما كانوا في مكة لم يكن عندهم واقع مستقر، كانوا يتمنون أن يقاتلوا، عندما ذهب إلى المدينة، وبدأ يبني حياة مستقرة بدأ يتثاقل عن القتال (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ) في مكة (كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ) في المدينة (إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ) ماذا كان الرد؟ (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ).

[النساء:٧٧]

إذًا الحديد قبل أن يقول الله أن فيه منافع، ماذا قال؟ (بَأْسٌ شَدِيدٌ)، من منافع الحديد، بعض المفسرين قال: المنافع هنا ليس المقصود بها المنافع الدنيوية، قال: بل المنافع هنا فتح الأراضي ودخول الناس في دين الله أفواجًا.

وبعض المفسرين قال –وهي من أجمل ما قرأت– **أهم فوائد الحديد** ومناسبته لسياق السورة أنه **يبين المؤمن من المنافق وأنه لا يحدث تمييز بين المؤمن والمنافق حقيقي إلا في القتال**، –مثلما معنا في سورة الحديد هنا–، التمايز التام الذي حصل بين المؤمنين والمنافقين حصل يوم القيامة (فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ) [الحديد:١٣] حصل تمايز بين المؤمنين والمنافقين، هذا التمايز –السور الذي يُبنى بين المؤمنين والمنافقين– لا يحدث في الدنيا إلا في القتال، كان عبدالله ابن أبي ابن سلول كل خطبة جمعة، والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب، فيقوم عبدالله ابن سلول ماذا يقول؟ أنت نبينا وبعثك الله لنا وأنقذنا الله بك من العمى والضلال (مثل السبيط الذي يجلس بجانب قراء القرآن) وأنت... وأنت... فكانوا يتركونه، فلما رجع بثلث الجيش في غزوة أُحد، بعد هذه المصيبة التي فعلها –بعد أحد– النبي صلى الله عليه وسلم قام يخطب فقام عبدالله ابن سلول –كعادته– يقول: أنت نبينا وأنت... قال له: اجلس اجلس، ماذا تفعل... فضحتنا... أنت رجعت بثلث الجيش اجلس! فغضب ونهرهم وانصرف، فالتمايز حدث في غزوة أحد.

إذًا من المنافع –منافع الحديد– أن يميز لنا بين المؤمن والمنافق –ربنا يجعلنا من المؤمنين الصادقين– **لا يكون التمييز إلا بالحديد؛ أي لا تكونُ إلا في مواطن البذل والقتال**، إذًا الإنسان يظل على شبهة من النفاق حتى يُختبر في موضع البذل ولا يبذل، النبي صلى الله عليه وسلم ربط بين القتال والنفاق في أي حديث؟ "من لم يغز أو تحدثه نفسه بالغزو" ماذا

يحدث له؟ "مات على شعبةً من شعب النفاق"[٤] ؛ كل طاعة تتركها، أي طاعة تتركها، ستترك مكانها مرضًا في قلبك، يعني الذي لا يصلي الفجر في المسجد عنده مرض في قلبه، الذي لا يذهب للحج ولا للعمرة وهو قادر عنده مرض في قلبه، كل طاعة تتركها... الذي لا يصوم عنده مرض في قلبه، لذلك "من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإن لم يستطع فليصم"[٥]، إذًا كل طاعة تتركها ستترك مرضًا، الذي يترك الغزو أو لا تحدثه نفسه بالغزو مات على شعبة من ماذا؟ هذه من شعب النفاق، **فإذا كان الصيام والصلاة يُصلحون الشهوات، فالبذل لنصرة دين ربنا يُصلح النفاق.**

راقب نواياك

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد:٢٥] ، فالعلم لن يحدث –طبعًا ربنا سبحانه وتعالى علمه سابق– العلم سيظهر لنا واضحًا جليًا مثلما قلنا أن هذا السور سيظهر مع نزول الحديد ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾، ابن كثير قال كلمة جميلة جدًا هنا في تفسير الآية، قال: "وليعلم الله من نيته في حمل السلاح نصرة دين الله"؛ أي أن هناك أناس سيحملون السلاح وسيذهبون للوقوف في صف المؤمنين لكن ستبقى نيتهم مكاسب دنيوية والعياذ بالله، فقد تجد شخصًا يمسك الميكروفون ويعطي درسًا دينيًا، وتكون نيته غير خالصة لنصرة دين ربنا.

من الممكن أن يكون إمامًا، إمام يصلي بالناس ولكن نيته ليست نصرة دين الله والعياذ بالله ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾[ال عمران:١٥٢] ، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن

---

[٤] - [عن أبي هريرة:] مَن ماتَ ولم يغزُ ولم يحدِّث نَفسَهُ بالغَزوِ ماتَ على شُعبةٍ من نفاقٍ / الألباني (١٤٢٠ هـ)، صحيح أبي داود ٢٥٠٢ • صحيح • أخرجه مسلم (١٩١٠) باختلاف يسير، وأبو داود (٢٥٠٢)، والنسائي (٣٠٩٧)، وأحمد (٨٨٦٥) واللفظ لهم

[٥] - [عن عبدالله بن مسعود:] دَخَلْتُ مع عَلْقَمَةَ، والأَسْوَدِ على عبدِ اللَّهِ، فَقالَ عبدُ اللَّهِ: كُنّا مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم شَبابًا لا نَجِدُ شيئًا، فَقالَ لَنا رَسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: يا مَعْشَرَ الشَّبابِ، مَنِ اسْتَطاعَ الباءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فإنَّه أغَضُّ لِلْبَصَرِ وأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، ومَن لَمْ يَسْتَطِعْ فَعليه بالصَّوْمِ فإنَّه له وِجاءٌ./البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٥٠٦٦ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٥٠٦٦) واللفظ له، ومسلم (١٤٠٠)

﴿يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد:٢٥]، من الذي يراعى الغيب بينه وبين الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢]، حتى حمل السلاح في أشد مواطن القتال فيه خطورة في تحقيق النية، النبي صلى الله عليه وسلم يقول[٦] أن أول ثلاثة تسعر بهم النار، فيهم مجاهد كان أمام الناس بطلًا في نصرة دين الله والعياذ بالله أمام الناس لكنه منافق، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾.

ختام الآية نفس أسلوب الآية السابقة ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤)﴾ ، لا تعتقد أن الله يقول لك قاتل وأنزل الحديد لكي تقاتل لأن الله يحتاجك أن تقاتل! أبدًا ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)﴾، الله لا يُغالب، الله قوي ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [محمد:٤] ولكن أنت الذي تحتاج، وبعض المفسرين قال: ختام الآية معناه بما أن الله قوى عزيز فلابد أن يكون رسله وأولياؤه كذلك، يجب أن يُظهروا القوة والعزة؛ أنت عبد للقوي العزيز يجب أن تُظهر العزة، لا تقبل الدنية في دينك أبدًا، يجب أن يظل هذا الدين قويًا عزيزًا؛ لأنك عبد للقوي العزيز، والذى أمرك بهذا هو القوى العزيز.

فالله سبحانه وتعالى يقول: هذا ملخص تاريخ البشرية، الله أرسل رسل معهم بينات، معهم كتاب يُصلح علاقة الناس بربهم، وميزان مستقى من الكتاب يُصلح العلاقات الدنيوية، فيقيمون العلاقات الاجتماعية وِفقَ مراد الله، توزيع الميراث على وفق مراد الله، الخلاف في

[٦] - [عن أبي هريرة:] إنَّ اللهَ تبارك وتعالى إذا كان يومُ القيامةِ، ينزلُ إلى العبادِ، ليقضيَ بينهم، وكلُّ أمةٍ جاثيةٌ، فأولُ من يُدعى به رجلٌ جمع القرآنَ، ورجلٌ قُتِلَ في سبيلِ اللهِ، ورجلٌ كثيرِ المالِ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ للقاريءِ: ألم أُعلِّمْك ما أنزلتُ على رسولي؟ قال: بلى يا ربِّ، قال: فما عملتَ فيما علمتَ؟ قال: كنتُ أقومُ به آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ له: كذبتَ، وتقولُ له الملائكةُ: كذبتَ، ويقولُ اللهُ تبارك وتعالى: بل أردتَ أن يقالَ: فلان قاريءٌ، وقد قيل ذلك. ويُؤتى بصاحبِ المالِ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ألم أُوَسِّعْ عليك حتى لم أدعْك تحتاجُ إلى أحدٍ؟ قال: بلى يا ربِّ؛ قال: فماذا عملتَ فيما آتيتُك؟ قال: كنتُ أَصِلُ الرَّحِمَ، أتصدَّقُ. فيقولُ اللهُ له: كذبتَ، وتقولُ الملائكةُ: كذبتَ، ويقولُ اللهُ تبارك وتعالى: بل أردتَ أن يُقالَ: فلانٌ جوادٌ، وقد قيل ذلك. ويؤتى بالذي قُتِلَ في سبيلِ اللهِ، فيقولُ اللهُ له: فبماذا قُتِلْتَ؟ فيقولُ: أيْ ربِّ ! أُمرتُ بالجهادِ في سبيلِك، فقاتلتُ حتى قُتِلتُ، فيقولُ اللهُ له: كذبتَ، وتقولُ الملائكةُ: كذبتَ، ويقولُ اللهُ: بل أردتَ أن يُقالَ: فلانٌ جريءٌ، فقد قيل ذلك. ثم ضرب رسولُ اللهِ على رُكبتي فقال: يا أبا هريرةَ أولئك الثلاثةُ أولُ خلقِ اللهِ تُسَعَّرُ بهم النارُ يومَ القيامةِ. /الألباني (١٤٢٠ هـ)، صحيح الترغيب ٢٢ • صحيح

المعاملات الاقتصادية وفق مراد الله، الإصلاح في الاجتماعيات، مثلًا: أن تكون أرضه بجانب أرضي وهو مات، هل آخذها بالشفعة أم لا؟ وِفق مراد الله .

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾، شجر: أي خلاف بيني وبينك –ولو كان خلافًا بسيطًا– يجب أن نرجع للشرع، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، ليس فقط هذا، بل ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]

إذًا هذه هي القصة، وهناك مَن سيخالف ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ (٢٤)﴾ فنقاتلهم... ﴿أَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ (٢٥)﴾، هذا هو الملخص.

مصير الأمم السابقة

ثم أتى لك بتاريخ البشرية في التعامل مع تطبيق هذه القواعد، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦)﴾ [الحديد:٢٦]

لماذا نوح وإبراهيم؟

هؤلاء هم أول اثنين من أولي العزم من الرسل، نوح وإبراهيم لم يبين الله في القرآن هل كان عندهم شريعة أم لا؟ ماذا تعني الشريعة ؟

تكلمنا في هذا الموضوع من قبل وشرحناه بالتفصيل؛ أن الأقوام التي كانت قبل سيدنا موسى كان ينزل عليهم العذاب الكلي (عذاب استئصالي)، ثم من بعد إغراق فرعون، النبي صلى الله عليه وسلم قال لن يكون هناك عذاب استئصالي كلي و هذه مرحلة نزول الكتاب (أن يكون هناك تشريع للناس) وكان أول تشريع متكامل، ما هو؟ التوراة، كان أول تشريع متكامل في مسألة القصاص والديات كان في التوراة، كان عندهم تشريعات بسيطة في الأمم السابقة، لكنه لم يكن مجتمعًا، فكان النبي يدعو قومه فتؤمن به قلة قليلة، والباقون يرفضون فينزل عذاب يُهلك الأكثرين وتبقى القلة، ماذا تفعل تلك القلة؟ لم يذكر الله لنا في القرآن.

يأتي نبيٌّ بعده يدعو قومه فتكفر الأكثرية، وتؤمن قلة ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيل﴾[هود:٤٠] ينزل عذاب يُهلك الأكثرية و تبقى القلة، ماذا تفعل تلك القلة؟ هل يكون لهم تشريع؟ لا يذكر لنا القرآن، أول قوم ذكر الله لنا أن لهم تشريع متكامل كان التوراة بعد إهلاك فرعون.

لذلك قال بعض العلماء (فالجهاد لم يكتب إلا في التوراة)؛ أي لم يكن هناك ما يسمَّى بالجهاد والقتال من قبل التوراة، من أول سيدنا نوح حتى نزول التوراة لم يكن هناك ما يسمى بالجهاد، لماذا؟ كيف سيجاهدون وهم قلة!

❖ **ما الذي كان يقوم مقام الجهاد ؟**

❖ **الإهلاك (العذاب الاستئصالي)**.

الذي كان يقوم مقام الجهاد هو العذاب الاستئصالي، بعد أن نزل تشريع لم يعُد هناك شيء يُسمَّى عذابًا استئصاليًا؛ وإنما أصبح دور البشر في الجهاد لذلك.

كما قال تعالى ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ [الفيل:١]، هذا حدث عندما لم يكن هناك مؤمنون يدافعون عن الكعبة، ولكن عندما جاء مؤمنون يدافعون عن الكعبة، فلن يحدث ذلك، الكعبة ستُهدم؟ نعم ستُهدم، ليس هناك الطير الأبابيل؟ نعم ليس هناك طير أبابيل؛ لماذا؟ لأنه أصبح هناك الطائفة المؤمنة التي تدافع (أصبحت هذه مهمتهم)، فعندما يحدث هدم يكون ذلك تقصير من الطائفة المؤمنة، فيُعاتبون على ذلك.

فقد ذكرت الآية الأولى نوح وإبراهيم الذين لم يكن عندهم الجهاد؛ ولكن عذاب الاستئصال، لذلك قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الحديد:٢٦] لم يذكر معها الحديد، فبالتالي كان منهم جزء صغير مهتدي وكثير منهم فاسقون، ثم ماذا بعد سيدنا إبراهيم؟ ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا...﴾

انظر ماذا قال الله تعالى لنا في سورة الحديد؟ قاتلوا وجاهدوا، وذكر لنا سبب القتال؛ لأنه أنزل الكتاب والميزان كي يصلِح حال الناس بالقسط، ولأنه هناك من سيرفض فستقاتلونهم بالحديد.

إذًا ما قصة الجهاد؟

ذكر الله لنا من البداية –سيدنا نوح وإبراهيم–، وبعد ذلك ﴿ثُمَّ قَفَّينَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ [الحديد:٢٧]

القفا: تعني أنني أسير خلف شخص بالضبط؛ أراه،

كلمة (قَفَّينَا) تعني أن المسافة التي بيننا تسمح أن أرى ظهره؛ مثل التابعي.

إذًا(قَفَّينَا) بالرغم أن المسافة الزمنية طويلة؛ كأن كل رسول وكل نبي كان يرى الرسول الذى قبله، هذه كناية عن وحدة الرسالة ووحدة المنهج، بل إنه سبحانه وتعالى لم يقل فقط (ثُمَّ قَفَّينَا) وإنما قال (ثُمَّ قَفَّينَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم) كلمة على آثار؛ عندما كان يمشي أحدهم في الصحراء ليلحق أثر الآخر كان يمشى خلفه مباشرةً، لأنك إذا تأخرت لأزالت الرياح الأثر، فكلمة (قَفَّينَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم) تعني أنه لم يكن هناك فترات زمنية طويلة أو المعنى الأشهر أن الرسالة كانت واحدة، خطوات ثابتة، الكل يدعو إلى التوحيد "الأنبياء إخوة لعلات؛ دينهم واحد وشرائعهم شتى"[٧]، **أصل الدين واحد، الرسالة واحدة، كلهم يدافعون عن عقيدة واحدة؛ هي عقيدة التوحيد.**

﴿وَقَفَّينَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ [الحديد:٢٧]

- هنا تخطّت الآيات موسى عليه السلام وذكرت عيسى عليه السلام، **لماذا؟**
- **لأن الآية تريد أن تُريَك المِفْصل الخطير في غياب الجهاد**، نحن نتكلم هنا عن قصة نصرة دين الله تعالى من خلال استعمال الحديد؛ السيف، الجهاد، القتال، البذل، الإنفاق... ذكرت نوح عليه السلام وإبراهيم عليه السلام لم يكن هناك قتال فلذلك كان كثير منهم فاسقون.

ثم عندما جاء عيسى ابن مريم ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةً وَرَحۡمَةً﴾ [الحديد:٢٧] هذه الآية من الآيات المشكلة في القرآن، دائمًا كل نبي يأتي بإصلاحات

---

[٧]- [عن أبي هريرة:] أنا أَوْلى النّاسِ بعِيسى ابْنِ مَرْيَمَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ، والأنْبِياءُ إخْوَةٌ لِعَلّاتٍ، أُمَّهاتُهُمْ شَتّى وَدِينُهُمْ واحِدٌ. البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٣٤٤٣ • [صحيح]

للمشكلات التي كانت موجودة قبله، فعندما جاء عيسى عليه السلام كان الأقوام الموجودون اثنين هم اليهود والرومان، كانوا من أقسى الخلق، وكانوا يتفننون في صور التعذيب، كانت أشد الجرائم قسوة هي التي حدثت في هذا الزمن، فكان لزامًا أن النبي الذى يُبعث في هذا الوقت يُضاد هذه القسوة، يأتي برحمة ورأفة؛ لذلك جاء نبي الله عيسى بالسلام والتسامح حتى يعالج هذه الغلظة.

(ثُمَّ قَسَت قُلُوبُكُم مِّن بَعدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَٱلحِجَارَةِ أَو أَشَدُّ قَسوَة)[البقرة:٧٤] تأمل حينما يقول الله _عزوجل_ عن قلوب بني آدم أقسى من الحجارة، فكان لابد أن الذي يصلح هذه القسوة طوفان من المشاعر والحب والرأفة والرحمة، مَن هذا النبي؟ إنه عيسى عليه السلام، ليصلح الغلظة التي كانت عند اليهود والرومان، كانوا يقتلون الأنبياء؛ نشروا زكريا عليه السلام، ذبحوا يحي عليه السلام، وفي بعض الروايات أنهم قتلوا في يوم واحد سبعين نبيًا؛ سبعين نبيًا في يوم واحد، أنت لا تتخيل مقدار الغلظة والقسوة التي كانوا عليها.

(وَجَعَلنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأفَة وَرَحمَة) [الحديد:٢٧]، لكنهم لم يقفوا عند الحدود الشرعية التي أمرهم الله بها، فالله سبحانه قد جعل لهم حدود شرعية؛ رأفة ورحمة، لكن كان لابد أن يقفوا عند هذه الحدود، **لكنهم زادوا عليها بما يُسمى (الرهبانية)**.

لا شك أن هناك خلاف طويل في هذه الآية -مَن أراد مزيد من التفصيل فليقرأ (زاد المسير لابن الجوزي) فقد لخص هذه المسألة-، لكن نحن نقول أن الأَوْلَى أن تقرأ (وَجَعَلنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأفَة وَرَحمَة) وتقف، ثم تقول (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا)، وإن أردت الوصل فيجب أن تكمل بعد ابتدعوها؛ فتقول (وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ) [الحديد:٢٧]، المعنى أن الله تعالى لم يكتب الرهبانية عليهم، ولكنهم ابتدعوها من عند أنفسهم!

تأتي المشكلة عندما يأخذ الفرد أمر من أمور الدين ويزيد عليه، فمثلًا شخص يحب العبادة جدًا؛ هو يقف على صدر العبادة، لكنه يتنطع ويزيد أمورًا ليست من الدين، هذه

هي الخطورة، فكما أنه من الخطر أن تنقص من الدين، فكذلك من الخطر أن تزيد، حتى وإن كان ظاهريًّا أمر جيد.

فمثلًا إذا أنا صليت العشاء خمس ركعات هل هذا أمر جيد؟! لقد زِدتُ ركعة فما المشكلة؟! قد أسهو في ركعة فتكون هناك أخرى احتياطية! لا، لا يجوز! إذًا مثلما أن النقصان في الدين خطأ، كذلك الزيادة في الدين خطأ أيضًا.

الدين مثل ذروة جبل؛ الذى ينقص في الدين لم يصل بعد إلى القمة، والذى يزيد في الدين نزل من أعلى القمة من الناحية الأخرى؛ أي أنك في الدين يجب أن تقف على قمة الجبل، لاتقف قبلها ولا تكمل بعدها، وتقف؛ لأنك إن أكملت أخطأت وابتدعت.

فهم من شدة الضغط الذي كان عليهم وشدة الرأفة والرحمة التي كانت عندهم زادوا في الرهبانية.

كيف نشأت الرهبانية؟

هذه هي المشكلة التي تعالجها سورة الحديد، حتى لا تنشأ الرهبانية في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، هذه هي الخطورة.

كيف نشأت الرهبانية؟

في كثير من الروايات عن ابن مسعود وابن عباس وغيرها وإن كان أصح الأسانيد الحديث الذي صححه الشيخ الألباني عن ابن عباس، لكن أسانيد ابن مسعود قال عنها ابن كثير قال أنها تُحسَّن من مجموع طرقها.

مفاد الكلام كله أنه كان هناك طائفة من الملوك الظالمين في عهد عيسى عليه السلام، وبعد عيسى عليه السلام كان هناك مَن يحافظون على التوراة والإنجيل الصحيح.

بعد رفع عيسى عليه السلام كانوا يقرؤون على الناس التوراة والإنجيل، وكان مكتوب فيهما (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) [المائدة:٤٤]، هذا النص كان موجودًا في التوراة، هذا الأثر في النسائي عن ابن عباس حسَّنه الشيخ الألباني.

عندما كانوا يقرؤون هذه الآيات، كان المستفيدون من الملِك الظالم ويَشْغَلون المناصب الدينية الفاسدة التابعة للسلطان (تجد دائمًا السلطان الظالم لابد أن يستند إلى رجل دين فاسد ليُفتي له على مراده، لابد أن يكون هناك صبغة دينية)، فغضب هؤلاء الفاسدون وذهبوا إلى الملوك وقالوا: واللهِ ما نرى شتمًا أشد من شتم هؤلاء لكم -يقصدون مَن يقرؤون التوراة والإنجيل- لأنهم يقرؤون في كتبهم (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) وهذا شتم لكم لأنكم لا تحكمون بما أنزل الله، فأشار هؤلاء على الملوك أن يجمعوا كل مَن يقرأ التوراة والإنجيل ويمنعوهم من قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا وغيروا، منعوهم من مجرد القراءة فضلًا عن الدعوة إلى الله، وهذه رواية ابن عباس.

- بعض الروايات عن ابن مسعود أنهم رفضوا وقاتلوا الملوك، فقتلهم الملوك،
- الصنف الآخر خاف أن يُقاتِل واكتفى بالكلام، وذهبوا يكلمون الملوك فقتلوهم أيضًا.
- **بقي الصنف الثالث**، فماذا قالوا؟ (نعود لرواية ابن عباس):

- قسم منا يذهب إلى الفيافي والصحراء يعبد الله، يسيح في الأرض، فإن قدرتم علينا فاقتلونا،
- وقسم قال لهم: ابنوا لنا صومعة في الأماكن المرتفعة وابعثوا لنا طعام ونحن سنبقى فيها ونعتزلكم ولا نضايقكم، ونعبد الله في هذه الصومعة،
- وقسم ثالث قال: سنذهب إلى أماكن بعيدة ونبني فيها أديرة نعبد الله فيها.

وهنا كان بداية ظهور (الرهبانية) لأول مرة.

هذا في الصومعة وهذا في الصحراء وهذا في الدير، حتى لا ينشغل عن العبادة ولا يختلط بالمجتمع، ولا يتزوج؛ لأنه إذا تزوج سيكون هناك نسب، ومناسبات، وأولاد، سيكون هناك حياة اجتماعية، وهو لا يريد ذلك؛ لا يريد اختلاط بالمجتمع لأنه غير قادر على مواجهة

المجتمع بالتغيير، أو غير قادر أن يُكَوِّن فئة تقاتل، إذًا الحل ألا يتزوج؛ ظهرت فكرة العزوبة، أيضًا أنا لا أريد الطبخ سآكل البقل فقط والنبات، لا أريد طهو ولا إشعال نار، فظهر النباتيون -وإن كان هناك الهندوس والبوذيون الذين يحرمون أكل الحيوانات-، الشاهد بدأت تظهر هذه الفكرة؛ عندما لم يُكوِّنوا طائفة تقاتل ظهرت (الرهبانية).

وكأن الرسالة التي تُوَجَّه هنا في سورة الحديد؛ أنكم إذا تخليتم عن القتال ستظهر فيكم (الرهبانية)، وإذا تخليتم عن القتال... الآية التي تكررت في سورة الحديد ثلاث مرات ولم تأتِ في غيرها من السور (وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ)، فجاءت خاتمة آية (أَلَمْ يَأْنِ...(١٦))، وخاتمة آية (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ...(٢٦))، وخاتمة آية الرهبانية (فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧))؛ **سيكثر الفسق في المجتمع.**

إذًا غياب الحديد من المجتمع يؤدى إلى ظهور الرهبانية عند أهل الدين، وظهور الفسق عند أهل الدنيا.

أؤكد؛ غياب الحديد من مجتمع وغياب القتال والطائفة التي تنصر الدين والتي تقوم بالقسط بين الناس، غياب هذه الطائفة يؤدي إلى انتشار الملوك الظالمين واستعمالهم أهل الدين الظالمين، هؤلاء الاثنين معًا يضغطون على الضعفاء الموجودين، الضعفاء يخافون فيفرون إلى الصوامع للرهبنة، وعندها لا يجد عامة الناس من يوجههم في الدين يفسقون، هذا تسلسل غياب سورة الحديد من المجتمع.

فالمتردد في نصرة الدين -الذي أتى في بداية السورة- (لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ) [الحديد:١٠][8]، **هذا المتردد لا يدري تبعات ما يفعله**، هؤلاء المترددون في

[8] تفسير السعدي :(فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل، أعظم درجة وأجرا وثوابا ممن لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك، كما هو مقتضى الحكمة، ولذلك كان السابقون وفضلاء الصحابة، غالبهم أسلم قبل الفتح، ولما كان التفضيل بين الأمور

نصرة الدين يساعدون على حدوث الرهبنة والفسق في المجتمع، الرهبنة عند أهل الدين والفسق عند باقي المجتمع من أهل الدنيا.

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ) [الحديد:٢٧]

- بعض المفسرين قال: ما فعلوها إلا ابتغاء مرضاة الله
- و بعضهم قال: ما كتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، فنحن لم نكتب عليهم الرهبانية، بل كتبنا عليهم قول الحق والقسط والقتال، هذا ما كتبناه عليهم (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا)

قد يتساءل لماذا تخبرنا بهذا الكلام؟

هذا من باب التذكرة ليس إلا! اللهم استعملنا لنصرة دينك.

(مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) [الحديد:٢٧]

هذا التعقيب جميل جدًا ما معناه؟

معناه: أي شيء ستضيفه من نفسك في الدين لن تستطيع أن تحافظ عليه.

ما كتبه الله عليك حتى لو ظاهره الصعوبة (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ) ، وبعدها (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا) [النساء:٦٦]

حتى لو أنهم قتلوا أنفسهم!... نعم

حتى لو خرجوا من ديارهم!... نعم

(لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا)

إذًا أن تقابلك مشكلة في المجتمع فتقوم بحلها بطريقتك بعيدًا عن الشرع، بعيدًا عن الميزان، هنا ستدخل في مشكلة ومن مشكلة لمشكلة يحدث تصور خاطئ للدين.

قد يتوهم منه نقص وقدح في المفضول، احترز تعالى من هذا بقوله: { وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى } أي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده، كلهم وعده الله الجنة، وهذا يدل على فضل الصحابة [كلهم.])

فأصل الرهبنة ليست موجودة، لذلك يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم –وإن كان في الحديث ضعف عند بعض العلماء– "رهبانية أمتي في بالجهاد"[٩]؛ أي: من يريد أن يترهبن ينطلق إلى الثغور لا إلى الصوامع.

من يريد أن يترهبن وينعزل حقيقة، فليبتعد عن الشهوات واللذائذ وينطلق في الجهاد، فهناك لا شهوات ولا لذائذ لكن بذل وبأس شديد.

(فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) [الحديد:٢٧]، الله عز و جل لا يكلف نفسًا إلا وسعها ولا يكلف نفسًا إلا ما آتاها، فعندما يكلف الناس أنفسهم ما لا يُشرع لا يستطيعون الاستمرار.

لذلك كما ذكر كثير من العلماء أن الله عز وجل فرض أن يكون هناك ساعة طاعة في يوم من الأسبوع، وهو يوم الجمعة وكان على جميع الأمم، لكن اليهود لم ترض بيوم الجمعة واختارت السبت، فعندما اختاروا السبت شدد الله عليهم، ولم تعد ساعة فقط يَحرُم عليهم فيها الصيد بل اليوم كاملًا، ولكن نحن لدينا في يوم الجمعة ممنوع التعامل الدنيوي من آذان الجمعة إلى انتهاء صلاة الجمعة، يحرم البيع بعد آذان الجمعة.

الجمهور قال بالحرمة وإن كان البيع فيها صحيح، والحنابلة قالت: البيع فاسد، أي أن من يشتري بعد آذان الجمعة فهذا البيع فاسد، أيًا كان فالعلماء اتفقوا على حرمة البيع.

نحن لدينا يحرم التعامل في الدنيا ((ساعة))، وهم عندهم ((السبت كله))، النصارى ضلوا بعدهم فذهبوا ((للأحد)).

[٩] - [عن أبي ذر الغفاري:] أُوصيكَ بتقوى اللهِ؛ فإنها رأسُ الأمرِ كلِّه قلتُ: يا رسولَ اللهِ ! زِدْني. قال: عليك بتلاوةِ القرآنِ، وذِكرِ اللهِ؛ فإنَّهُ نورٌ لك في الأرضِ، وذخرٌ لك في السماءِ قلتُ: يا رسولَ اللهِ ! زِدْني. قال: إياك وكثرةَ الضحكِ؛ فإنَّهُ يُميتُ القلبَ، ويذهبُ بنورِ الوجهِ قلتُ: يا رسولَ اللهِ ! زِدْني. قال: عليك بالجهادِ؛ فإنَّهُ رهبانيةُ أُمَّتِي... قلتُ: يا رسولَ اللهِ ! زدني. قال: أَحِبَّ المساكينَ وجالِسْهُمْ. قلتُ: يا رسولَ اللهِ ! زدني. قال: انظر إلى من هو تحتَك، ولا تنظر إلى من هو فوقَك؛ فإنَّهُ أجدرُ أن لا تزدري نعمةَ اللهِ عندَك قلتُ: يا رسولَ اللهِ ! زِدْني. قال: قُلِ الحقَّ وإن كان مُرًّا.... / الألباني (١٤٢٠ هـ)، صحيح الترغيب ٢٢٣٣ • صحيح لغيره

فلما شددوا شدد الله عليهم فلم يستطيعوا أن يرعوا يوم السبت، فاصطادوا يوم السبت، وهذا كان لابد وأن يقع! فلا يمكن للإنسان أن يرعَ شيئًا لم يكتبه الله عليه، لا يمكن! طاقتك لا تقدر، وفطرتك لا تتحمل.

(فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ) [الحديد:٢٧]

قيل: (فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ) أي من التزم بكتاب الله سبحانه وتعالى، (وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ)

- بعض المفسرين قال: إن أول من قام بالرهبانية كانوا معذورين، لماذا؟
- لأنهم لم يجدوا الطائفة المؤمنة التي تقاتل

ثم بعد هذا نشأ جيل أحدهم في الصومعة وأحدهم في الصحراء وأحدهم في الدير وأصبحوا وثنيين، ولم يعرفوا على ماذا كان آباؤهم، واتخذوا الرهبنة سبب لتحصيل الدنيا!

(إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ) [التوبة:٣٤]، استعملوا الرهبنة التي كانت في الأصل للبعد عن المال، ونشأ جيل يستعملها لكي يأكل أموال الناس بالباطل والعياذ بالله، (وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ)

نعم، فكثير ممن ترهبن أصبح بعد ذلك فاسقًا، أو أن كثير من المجتمع الذي بَعُد عن الدين أصبح فاسقًا.

ختام السورة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ) [الحديد:٢٨] ، هناك قاعدة مهمة جدًا في القرآن، أنه لما يأتي لفظ مطلق مثل التقوى والإيمان يُربط بسياق السورة؛ فالتقوى "اتَّقُوا اللَّهَ ":

- عندما تأتي في سورة الحجرات يكون معناها اتق الله في أخيك.
- اتق الله عندما تأتي في سورة التوبة معناها قاتل.

إذًا يكون معنى التقوى حسب السياق، والإيمان أيضًا كذلك.

﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ [الحديد:٢٨]

مثلما تكلمنا المرة السابقة في مسألة الإيمان أنه يختلف حسب الموقف، فكل موقف له الإيمان المطلوب له.

ففي موقف غزوة الأحزاب مطلوب منك أن تقول ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب:٢٢]،وموقف آخر مطلوب منك أن تقول مقولة أخرى، وهكذا.

- ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسوله﴾ **ماذا تعني؟**
- أنفقوا وابذلوا وقاتلوا لنصرة دين الله.

- إن قمنا بهذا فماذا يؤتينا الله؟
- ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ [الحديد:٢٨]

اللفظ غريب؛ ماذا تعني"كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ "، -طبعًا هذه الآيات لأن الدرس الأغلب فيه تربوي وليس تفسير علمي-، الآيات فيها خلاف طويل بين العلماء، مسألة الرأفة والرحمة والرهبانية، الواو هنا واو عطف أم واو استئناف والأقوال التي فيها،كل ذلك لمن أراد أن يرجع موجود في الكتب، و كما نقول من الكتب الملخصة السهلة التي تجمع هذه الأقوال كلها (زاد المسير لابن الجوزي)، وابن كثير قام أيضًا بتجميع سريع.

- الشاهد...**ما معنى الكفل؟**
- أصل كلمة الكفل في اللغة ما يوضع حول الدابة حتى تحفظ الإنسان من السقوط، فمن يريد الركوب على الدابة أو على ظهر الجمل، كانوا يتكفلوه ويهيئوا له كساء أو رداء يكفله حتى لا يسقط، هذا أصل كلمة الكفل.

أجمل من التقط هذا المعنى الإمام الأزهري والإمام القرطبي، قال: (إذًا لو نفذنا ما أمرنا ربنا به فسنُحفظ)، القرطبي لم يكمل، سنُحفظ من ماذا؟

إذًا نحن أخذنا تعبير الكساء الذي يُلف حول الإنسان كي لايسقط، **لن يُحفظ المجتمع من السقوط إلا بالقتال**، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : "إذا رضيتم بالزرع و تبايعتم بالعِينَة و تبعتم أذناب البقر سلط الله عليكم ذلًا لا ينزعه منكم حتى تعودوا"[١٠]؛ سنصبح أمة مذلولة بين الناس، كما هو حالنا الآن، كل هذا بسبب غياب "الحديد" أي الإنفاق والبذل والجهاد في سبيل الله.

﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ لن نُحفظ من السقوط إلا بالبذل لدين الله سبحانه وتعالى.

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، كما قال الراوي: فكانت التهلكة هي الإقامة في الأموال والأولاد وترك الغزو.

إذًا التهلكة والسقوط وأن تخسر الكفل، يكون بترك الجهاد والبذل لدين الله سبحانه وتعالى.

﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ [الحديد:٢٨]

قيل: كفلين أي مثنى متكرر، أو كفلين الإيمان والبذل.

طريق النور

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا ﴾ الكلمة التي تتكرر من أول السورة: النور المستمر!

الله عز وجل أنزل نور فالمنافقين محرومون من النور، المؤمنون معهم نور على الصراط، والشهداء لهم أجر و نور.

---

[١٠] - [عن عبدالله بن عمر:] "إذا تبايعتُم بالعِينةِ، وأخذتُم أذنابَ البقرِ، ورضِيتُم بالزَّرعِ، وتركتُمُ الجهادَ سلَّطَ اللهُ عليكم ذُلًّا، لا يَنزِعُه حتى ترجِعوا إلى دِينِكم" / الألباني (١٤٢٠ هـ)، صحيح الجامع ٤٢٣ • صحيح • أخرجه أبو داود (٣٤٦٢)، والبزار (٥٨٨٧)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢٤١٧)

﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد:١٩]

إذًا النور يزداد في الدين بالبذل؛ تريد نورًا أكثر في حياتك ابذل لدين الله أكثر... تريد لحياتك أن تستنير وترى المجتمع على حقيقته... ابذل للدين أكثر.

إذًا لن يأتِ النور إلا بالبذل.

ولن يأتِ الحفظ إلا بالبذل.

ولن يأتِ التوفيق إلا بالبذل.

و لن تُحفظ الأمة من الفسق لعوام المجتمع والرهبنة لأهل الدين إلا بالبذل نصرة لدين الله والقتال والجهاد، فلابد من بذل لنصرة دين الله!

﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾

لا تكن كالرهبان! ماذا ستفعل بالنور؟

﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾

لابد للنور أن يخرج من الصومعة إلى المجتمع!

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد:٢٨]

في الختام ﴿لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الحديد:٢٩]

جمهور المفسرين أن (لئلا) اللام هنا لام زائدة، وأن معنى الآية: **ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله؛ أي: أنهم ليس هم من يُوزع الفضل، بل الله هو من يوزع الفضل**، فالله اصطفى الأمة هذه بالقرآن والنبي صلى الله عليه وسلم وبالختام وبالقرآن وأنهم هم من لديهم الدين والشرع المتكامل، فالحل الوحيد لأهل الكتاب حتى ينالوا هذا الفضل أن يتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم! هذا هو الحل الوحيد.

وإن كان بعض المتأخرين أو حتى المتقدمين أيضًا، لمن أراد أن يراجع في التفسير كأبي مسلم الأصفهاني –وإن كان من المعتزلة– وفخر الرازي وابن عاشور وعبدالكريم الخطيب في التفسير القرآني، أن هذه اللام لام نافية، أي تركوها على ظاهرها وكل منهم حاول أن يفسر الآية.

الشاهد في الآية ختام السورة أن الله عز وجل اختص أمة النبي صلى الله عليه وسلم بالفضل، وأن هذا الفضل لأنهم يبذلون.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ لماذا؟

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ ﴾ [آل عمران:١١٠]

بذل ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ ﴾

الخيرية بالخروج للناس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾؛ أخرجت من الرهبنة وأخرجت من الصومعة ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾

بهذا نأتي لختام سورة الحديد. أسأل الله أن يفقهنا في الدين وأن يستعملنا لنصرة دينه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب اليك.